دراسات أفريقية

مجلّة بحوث نصف سنويّة

العدد الأول

رجب ١٤٠٥هـ
أبريل ١٩٨٥م

- الإسلام والتجانس الاجتماعي في افريقيا
  البروفسر مدثر عبدالرحيم
- الأصول التاريخية للعلاقات العربيّة الافريقية بغرب افريقية
  البروفسر عثمان سيد أحمد اسماعيل
- الصراع بين القوى الإسلاميّة والمسيحيّة في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر
  الاستاذ – الامين عبدالكريم
- انتشار اللّغة العربيّة في بلاد غرب أفريقية عبر التاريخ
  الدكتور السر سيد أحمد العراق
- التبشير والسياسة التعليمية في مناطق جبال النوبة (١٩١٩ - ١٩٥٦)
  الدكتور كمال عثمان صالح
- الأبحاث الأثرية وما تلقيه من أضواء على علاقة الجزيرة العربيّة بالسودان في زمن الخلفاء الرّاشدين
  الدكتور أحمد محمد على حاكم

المركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم

الإسلام فى السودان الغربى - آثاره السياسية والثقافية

د. على الخاتم

من المسائل البدهية إن التغير الاجتماعى والثقافى عملية مستمرة ما وجدت الجماعة الإنسانية ، على أن ذلك التغير محكوم بقوى داخلية وخارجية تؤثر عليه سلباً وايجاباً . ولقد كان الإسلام ولاشك من القوى الخارجية الهائلة الأثر فى مجال التغير الثقافى والاجتماعى فى غرب أفريقيا كما كان فى غيرها من البلاد التى أذن فيها حداته . كان محور التغير الإسلامى العقيدة الجديدة التى انبثقت منها روافد البعث الشامل فى كل أوجه حياة الإنسان . وقبل أن نستعرض مدى التغير الثقافى الذى أدخلته تلك العقيدة الوافدة على بلاد السودان الغربى ، لابد من القاء نظرة خاطفة على أثر الثقافات والعقائد السابقة التى وصلت الى أفريقيا على شتى قنوات الاتصال الإنسانى ، عبر التاريخ عن طريق التجارة والرحلات والاسفار أوالتبشير الدينى أو الغزو الاستعمارى مهما كانت صوره ودرجاته .

اهتمت الدول القديمة بالقارة الافريقية ، فكانت دولة الفراعنة فى مصر من أوائل تلك الدول وقد ثبتت أدلة علاقاتها المؤكدة مع أفريقيا جنوب الصحراء وبلاد السودان الغربى(١) كما كان لبلاد الاغريق تجارب أضيق مدى مع غرب افريقيا فيذكر أنهم وصلوا فى عهد هوميروس حتى أعمدة هرقل (جبل طارق) ويؤكد هيرودتس ان بعضهم جاب منطقة ماخلف الصحراء الغربية ووصلوا الى بلاد النسمونيين وهم من قبائل السود الذين يسكنون وسط أفريقيا .(٢)

ولم يتخلف الفرس عن هذا المجال فيذكر أن والى مصر من قبل الساسانيين (٤٨٥ق. م- ٤٦٤ق.م) قام برحلة بحرية الى ساحل غرب أفريقيا حتى وصل بلاد السنغال أوغينيا ، ويذكر فى كتب الرحلات البحرية اليونانية فى القرن الرابع ق.م ان جزيرة قرنه Cerne كانت معلما جغرافياً هاماً فى غرب أفريقيا ووصفت بأنها سوق تجارى كبير يتعامل فيه القرطاجنيون والافريقيون الذين يسكنون الساحل المقابل ويتبادلون جلود الغزلان والأسد والفهد وجلد الفيل وعاجه والحمور ، بما يقابل قيمتها عطوراً ومواد مصرية وفخاراً أثينيا(٣). كما كان للفينيقيين علاقات تجارية حميمة (بجرمه) عاصمة مملكة الحرمين القوية فى الصحراء الغربية ولم تحدد الفينيقيون هوية تلك القبائل التى كانوا يتبادلون معها التجارة فى أقليم فزان الذى كان يرتبط بساحل أفريقيا الشمالى بفضل الواحات ومنابع المياه الجوفية المتناثرة على طريق القوافل الصحراوى . وقد ذكر هيرودتس (ق٤ق.م) أن الطريق الذى يربط الساحل بفزان يستغرق ثلاثين يوماً(٤) وما أن يجتاز التجار الصحراء حتى يحطوا رحالهم على قرى الحواف المجاورة للصحراء

ويعرضون متاجرهم . هذه العلاقات التجارية أو الصلات التى بدأت منذ العهد الفرعونى واستمرت فى العهد القرطاجى من امبراطورية الفينيقيين لابد قد فتحت أعين الافريقيين على بعض معالم حضارة أولئك التجار الوافدين من الشمال الشرقى وتؤكد من الجانب الآخر أن طرق القوافل التجارية كانت معروفة من والى السودان الغربى باتجاهين : شمالى جنوبى وشرقى غربى منذ القدم ، وكانت قوافل الحرميين تحمل الريش وبيض النعام وسود أفريقيا الوسطى من بلاد السودان الى مدن البحر المتوسط الساحلية ، ويرى البعض أنهم وصلوا غرباً حتى هضبة نيجيريا حيث جلبوا منها القصدير (٥) ويتبادل مع الفينيقيين بمنتوجات دول البحر المتوسط والشرق . ويذكر أن هانو القرطاجى قد أسس حوالى ٤٨٠ق.م عدداً من المدن فى مناطق الاودية والواحات فى الصحراء وانه وصل حتى نهر السنغال ونهر غامبيا وسيراليون (٦) وبعد أن آلت سيادة البحر المتوسط لروما بانتصارها الساحق على قرطاجنة فى الحرب البونية الثالثة ١٤٦ق.م توثقت علاقة الرومان بافريقيا وورثوا كل أعباء قرطاجنة وأنشطتها فيها ، وصار شمال افريقيا يعرف باسم ولاية افريقيا الرومانية (٧) ومن ثم بسط أوغسطس سيادته حتى مشارف الصحراء غرباً ، وكانت حدوده المتاخمة للصحراء نهبا لغارات البربر فى الغرب والحرميين فى الشرق وزاد حدة خطر هذه الهجمات المتلاحقة دخول الجمال منطقة الصحراء الغربية فى القرن الأول الميلادى ، فاكسب البربر مرونة فى الحركة وخفة فى المبادرة ووسع مداهم الانتشارى طول الصحراء ، ولم يتمكن الرومان من أستعمال الجمل بنفس المهارة ، فلم يجدوا مخرجاً الا الاستيلاء على دولة فزان ١٩ق.م ، ولم يسمع عن الرومان فى السودان الغربى سوى أخبار قليلة جداً عن حملتين عسكريتين نفذت أولاهما بقيادة سبتيموس فلاكوس ووصلت الى بلاد الايثيوبيين (السود) حوالى عام ٧٠م بعد ثلاثة أشهر ، والحملة الثانية قادها جوليوس ماتيرنوس عام ٨٦م حتى بلاد اجيسميا التى يسكنها الايثيوبيون وهى مكتظة بحيوان الكركدن (٨). على أن الامبراطورية الرومانية لم تبلغ درجة النشاط التجارى الذى بلغه الفينيقيون على بلاد السودان الغربى ، مع أنهم اعتنوا بالتجارة وشجعوها ، كما اقبلت المدن الرومانية وأسواقها الرائجة على طلب السلع والمنتجات الافريقية التى تجلبها قوافل التجارة السودانية من رقيق وعاج وريش وبيض نعام ، وكان للحيوانات الوحشية والمفترسة طلب خاص لعروض السيرك ، هذا وقد كانت الاهمية القصوى لمعدن الذهب(٩).

ويذكر بلينى الاكبر اعتقاد الاغريق بان أفريقيا هى بلاد العجائب المتجددة ابدا وقد جرى هذا الاعتقاد بينهم مجرى المثل ، فيقولون « هناك شىء جديد

يخرج دائماً من أفريقيا». وقد وجهت مقولات بلينى الفكر والخيال الاوربى على مدى خمسة عشر قرنا ، فحكايات الافيال العملاقة والجمال المرقطة وفرس البحر البدين فاقتها فى الغرابة أخباره عن نفر من السودان الغربى ، بعضهم أرجله سيور رقيقة سحيقة الطول كايدى الاخطبوط ، والبليميون السود لا رؤوس لهم ويبصرون بثقوب على صدورهم ، وآخرون أنصافهم السفلى أنصاف معز(١٠). ومع أن الحكم الرومانى قد قضى نحواً من ألف سنة تقريبا فى مصر الا أنه لم يحدث تغييراً أساسيا فى جوف أفريقيا ، كما أن المسيحية لم تفلح كثيراً فى أختراق نطاق الصحراء الى بلاد السودان الغربى فى القرنين الاول والثانى الميلاديين ، على الرغم من أنها انتشرت فى شمال أفريقيا منذ وقت مبكر من العهد البيزنطى فهى لم تتجه الى الغرب الافريقى واكتفت بالامتداد الجنوبى على وادى النيـــل الى بلاد النوبة والحبشة (١١). ولم تخب الصورة الاسطورية التى طبعها بلينى على العقلية الاوربية وانتقلت عبر الازمنة رغم تطور الكشوف الجغرافية والعلوم التطبيقية فحتى عهد قريب جداً لم يلفت نظر البرتغاليين فى أفريقيا سوى سواد الرجل الافريقى وبياض بشرة الموريتانيين وبريق الذهب الاسطورى فى مناجم غانا وهالة المجد البدائى الموشى بلون التبر الذى تشع من عروش الملوك الافريقيين وأينع هذا التصور الاسطورى الحالم بعد ثلاثة قرون من التوغل البرتغالى فى غرب أفريقيا ملونا حصيلة الحركة الرومانسية التى جعلت افريقيا طلسما يدغدغ مخيلة الاوربى المرهفة . فهى الفيافى المموجة بجبال الرمل والفلاة التى تمرح فيها الاسود ، وملوكها الذين يجلسون على عروش يضمخها بخور السحرة ، ووشوشة الحلى المذهب(١٢).

ومن الشواهد المعبرة عن ذلك مؤلفات الروائيين الرومانسيين الاوربيين مثل مناجم الملك سليمان وجوف الظلام ورحلة بلا خرائط ، وغير ذلك كثير ....

مما تقدم نقول ان تجارب الدول القديمة وشعوبها مع الافريقيين عموما وأفريقى السودان الغربى بصفة خاصة تراوحت بين التجول الاستطلاعى وأسفار الرحالة ثم التعامل التجارى فالغزو العسكرى الاستيطانى الذى فرض بحد السيف . على أن تجربة أى من تلك الدول والامبراطوريات لم ترق للمستوى الذى رفعت اليه الدعوة الإسلامية حضارة الإنسان المسلم الروحية والمادية ، وتختلف فى الاساليب والوسائل التى أتخذتها لتصل الى الإنسان فى السودان الافريقى فى منطقة السافنا أو فى جوف الغابة الاستوائية .

ومع أن التغيير سنة الحياة فان الإسلام قد قوى معدل بسرعة التغيير الاجتماعى

وحدد أهدافها ان لم تخلقها وفى معظم الحالات جعل التغيير جذريا وموثراً تاثيراً ملحوظا وهاماً فى أسلوب حياة الجماعات الافريقية التى أسلمت ، ولما كان الإسلام عقيدة كتابية معجزتها فصاحة وبيان وشمول القرآن الذى نزل باللغة العربية ، كان مدخل المسلم للايمان التعلم والاقتناع بدءاً بالتلقين ثم التدرج فى تعلم اللغة العربية لفهم القرآن منهج الدين الجديد كنقطة انطلاق لنشر الدعوة وبناء مجتمع المستقبل . لقد كانت العقيدة والثقافة الإسلامية أعظم أسهام شرقى أعطى منهجا قويما لتطوير أفريقيا . فالاسلام ثقافة حياة مع سمو جانب التعبد فيه . فيه اللسان اللغوى المعبر على النطاق المحلى والعالمى ، وفيه مفاهيم جديدة للقانون والنظم ، كما أعطى نماذج سامقة لفن العمارة فى مساجده نماذجها الرشيقة كما عرض أزياء أنيقة محتشمة وقورة تهندم بها الدعاة والتجار الأوائل ممن حملوا لواء الإسلام الى أفريقيا بعد أن وطدوا دولته فى شمالها فى القرن السابع الميلادى .

بدأ البدو المسلمون يتحركون من منطلقات ذاتية نحو الجنوب الغربى الافريقى عبر نطاق الصحراء ثم انحرفوا غربا الى بلاد السودان لانها أقل جدبا من الصحراء وأرتع كلأ لحيواناتهم ، ويمثل تحرك البدو المسلمين هذا آخر هجرة قوقازية من قبائل جنوب غرب جزيرة العرب التى بدأت منذ عهد مبكر ، وقد سلكت طرق القوافل البرية التى تبدأ بعد عبور البحر الأحمر الى جوف السودان الغربى مارة ببلاد السودان الشرقى(١٣). ومنذ فجر التاريخ كان حوض نهر السنغال ماهولا قامت فيه دويلات أفريقية على قدر من التحضر عرفت استغلال النحاس والحديد وصناعة الفخار ونسج الثياب ، هذا وقد وصل بعض البدو الرعاة مدفوعين بجدب الصحراء وشح مراعى حوافها الى حوض السنغال وبمرور الزمن ازداد عددهم وهاجرت اليهم جماعات من البربر واستقروا بين الزنوج الذين كانت لهم نظمهم وعقائدهم الخاصة .

وربما كانت أقدم محاولات الاحتكاك الإسلامى الرسمية ببلاد السودان الغربى حملة عبيدالله الحبحاب والى أفريقيا والمغرب عام ١١٦هـ بقيادة حبيب ابن أبى عبيدة الفهرى التى وصلت السوس الاقصى وأرض السودان حوالى عام ١٢٠هـ(١٤م). فظفر باهل السودان ظفراً لم ير مثله وأصاب ماشاء من ذهب(١٥) أما التجارة فقد كانت متبادلة بين القيروان وبلاد السودان الغربى منذ منتصف القرن الثامن الهجرى – عهد الولاة – ويذكر سكن الصائغ القيروانى انه كان يصنع السلاسل النحاسية ويموهها بماء الذهب ويرسلها لتباع فى بلاد السودان ، واستفتى فى ذلك الشيخ بن فروخ الفاسى فانكر عليه صنعته لأن لاهل السودان

معاهدة(١٦). وربما كانت القيروان تتاجر فى العاج مع بلاد السودان(١٧).

ومن أقدم الدول الافريقية المستقلة التى تحرك فيها التجار الدعاة للاسلام فى بلاد السودان الغربى مملكة غانا ثم مملكة كانم ويذكر السعدى وكاتى ان غانا نشأت فى القرن الرابع الميلادى ، قوامها قبائل متزنجة على حافة الصحراء الجنوبية وتمتد بين وادى النيجر الادنى شرقاً ، والمحيط الاطلسى غربا ووادى السوس والصحراء الموريتانية شمالا ، ومنابع نهر النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال جنوبا على الاقليم الذى كان يعرف بواجادو WAGADU وجمهورية السنغال ومالى الحاليتين ، وقد تغلب على عرشها عدد من الملوك الوثنيين حتى نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر(١٨). كان نظام الحكم فيها شبه اقطاعى حيث تخضع لملك غانا أمراء غاوْ فى الشرق ومالى فى الجنوب والممالك البربرية شمالا على حافة الصحراء الموريتانية . وبداية هذه الدولة غامض ولكن الروايات المتداولة توحى بان بناتها الاوائل كانوا من البيض ربما البربر أوالعرب وقد قوى اقتصاد مملكة غانا علاقاتها التجارية الرائجة مع الشمال المسلم لكثرة الذهب والنفائس الأخرى فيها التى تحتاجها السوق العالمية يومئذ(١٩).

وعلى الجانب الآخر كانت قبائل صنهاجه الجنوب قد توخدت فى القرن الخامس بغرض حماية تجارتها وتأمين طرق قوافل بلاد السودان والمغرب وتأمين أطرافها الجنوبية أمام توسع دولة غانة . ويشك كثيرا فى أن تجمع قبائل البربر « الصنهاجة» كان بسبب الحمية والغيرة على الإسلام لأن تلك القبائل لم يكن الإسلام قد تمكن بعد من وجدانها . وربما كان تجمعا للقوى لحماية مصالح القبيلة من تغول الزنوج فى الجنوب(٢٠). ولكن البربر صاروا حماة ودعاة للاسلام فى غرب أفريقيا فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد أن صهرتهم دعوة المرابطين فى كادر عسكرى مدرب ومشرب بالمعرفة الاسلامية يدعو بها ويدافع عنها اذا حاقت مخاطر ، وانطلقوا من معقلهم الذى أسس بعيداً فى أحدى جزر مصب نهر السنغال لهداية قومهم بالتى هى أحسن ، واذا امتنعوا يجاهدونهم فى سبيل الله (٢١).

استولى المرابطون تحت قيادة عبدالله بن ياسين على رقعة كبيرة من شواطى النيجر وهزوا السنغال ومسينا وأمتدت أيادهم حتى غرب نيجيريا ، وتقوم دعوتهم على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولم يقنع الداعية ابن تاشفين بما حققوا فشرعوا يعدون تنظيمهم لخطوة كبرى حيث آمنوا بان الجهاد لايتحقق الا بنشر الإسلام فى الممالك الزنجية فى الجنوب والتى تخضع لسلطانها جماعات

من المسلمين الذين يعيشون فى كنفها وهى قبائل الستوتوكلور والساراكولى وجزء كبير من قبائل الماندينغ التى تأثرت بعلاقات الجوار والاقتداء بالتجار المسلمين وقد تمكن الاسلام من الامراء والى درجة مقبولة بين العوام ، وأخذ الاسلام يتقدم حثيثاً نحو السلطة السياسية حتى اتخذ السلطان وارجابى War-Jabi (ت١٠٤٠م) سلطان دويلة التكرور التى كانت خاضعة لغانا اتخذ خطوة جريئة بان أجبر زعماء مملكته على اعتناق الاسلام وتطبيق الشريعة الاسلامية . وتوثقت عرى الصلات السياسية والاقتصادية بين مملكة التكرور فى عهد السلطان لبى Lebi وبين اتحاد البربر الذى يتولى قيادته المرابطى عبدالله بن ياسين وكان اتحاد البربر يهيمن على طرق التجارة الشمالية بين مملكة التكرور وامبراطورية السنونكيين الوثنية فى غانا ، والذى يصدر عليها معظم ذهب نهر السنغال الاعلى هذا وقد ساعد لبى المرابطين فى فتح كومبى عام ١٠٧٦(٢٢). ولم تصمد مملكة غانا الوثنية فى وجه جحافل المرابطين فتراجعت عن أودغست عام ١٠٥٦ ، وانضمت الى صفوف ابن ياسين القبائل الافريقية التى اسلمت طوعا وأسس مدينة تمبكتو سنة ١٠٦١م . وما أن هل عام ١٠٧٦ حتى فتح مرابطو المغرب كومبى عاصمة غانا وأسلم سلطانها تانكامنين وكثير من أهلها ودفع الآخرون الجزية(٢٣) على أن مملكة غانا استعادت سيادتها عام ١٠٧٨م وطردت المرابطين ، ولكن بعد أن تمكنت السلطة الإسلامية والعقيدة فيها . وقد شيد المسلمون فيها اثنى عشر مسجداً ، وكانوا جالية عظيمة العدد فيها وزراء السلطان الغانى ، ولكن الدين الوثنى مازال هو الدين الرسمي ودين الاغلبية(٢٤).

وأمام هذا المد الإسلامى بين أفراد الاسرة الحاكمة وقبائل غانا المحلية انسلخت عنها بعض الامارات الوثنية المتعصبة التى كانت موالية لها وهى مملكة الصوصو ومملكة ديارا ومملكة غلام وكونت الممالك الثلاث حلفا وثنيا بزعامة سومانقورو كانتيه الصوصى فى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر والسنغال للقضاء على دولة غانا الاسلامية . وسقطت بالفعل عاصمتها كومبى صالح سنة ١٢٠٣م ، ومع هذا فقد تحملت قبائل حوض السنغال المسلمة من التكرور والساراكوله عبء نشر الإسلام فى بلاد وادى النيجر (٢٥).

لم تستطع دولة التكرور المستقلة أن تشغل الفراغ السياسى الذى نجم عن سقوط مملكة غانا ، مع أن دولة التكرور قد استمتعت باستقلالها فترة معقولة ، ولاتعرف الاسباب الداخلية التى أضعفتها ، على أن هنالك سببين غير مباشرين ولكنهما هامان حالا بين قوة التكرور وبين أن تبلغ المستوى الامبراطورى ، فعندما

واجهت امبراطورية غانا التكتل البربرى فى الشمال وفرض سيطرته على طرق التجارة الشمالية حولت معظم تجارة الذهب الى طرق شرق السنغال ، مما أدى الى ازدهار الدول الوثنية التى خلفت غانا والتى يمر بها الطريق الشرقى وهى دويلات الصوصو التى تزعمت الحلف الوثنى الثلاثى الذى أشرنا اليه ، ودولة مالى . كما أن منطقة السنغال قد تقاسمتها القبائل المحلية والمهاجرون الحدد ، واستحوذ النولانى واللمتونة والولوف على أطراف من دولة التكرور فى أوقات مختلفة وبذلك تمزقت مملكة التكرور الى عدد من الامارات الصغيرة ضئيلة النفوذ وثنية العقائد والنظم — وكان من بين رعاياها مسلمون(٢٦). ولم تأن جهود الدعاة المسلمين الذين كانوا ينطلقون من موريتانيا للاطاحة بحكم دويلة الولوف الوثنية ، وقد أفلحوا فى تأجيج ثورة هزمت يوربا جولوف وقتل حاكم والو وكابور . على أن الموريتانيين لم يحكموا الولوف طويلا ، فقد انتشرت مجاعة أثارت عليهم السكان المحليين فخرجوا عليهم واعادوا السلطة الى الاسرة الوثنية المخلوعة ، وظل الولوف معرضين عن الاسلام ، كما أن مسلمى موريتانيا لم يكفوا عن مجاهدتهم حتى القرن الثامن عشر. على ان الولوف أقبلوا على الاسلام فى القرن التاسع عشر عندما اقتنعوا بجدواه مع لواح بوادر خطر التوسع الاوربى ، وأن الثقافة والمعارف الإسلامية تسربت الى بلاد الولوف منذ عهد مبكر جداً بين القرن الحادى عشر والسادس عشر عندما اعتنق بعض ملوكهم الإسلام اعتناقاً منفعيا ، وقد كان من بين رجال بلاطهم دعاة وعلماء مسلمون قربهم السلاطين ابتغاء اسرارهم وطلاسمهم وأذكارهم وتوظيفها لخدمة أغراض البلاط السياسية والشخصية (٢٧).

مما تقدم رأينا ان الإسلام صار حقيقة افريقية منذ القرن العاشر الميلادي، ويمكن استنباط الطرق التى سلكتها الدعوة وأساليب عملها . وقد أتفق المؤرخون على هذه المسائل . ولاخلاف فى أن الاسلام توجه غربا عبر الصحراء من شمال أفريقيا مع حركة التوجه البشرى بدءاً بالتجارة حيث اجتذبت مناجم الذهب السودانى أفواج التجار المسلمين مثلما اجتذبت غيرهم ، وبعد أعتناق قبائل البربر المختلفة الإسلام اصبحت طرق القوافل الصحراوية الشمالية الجنوبية من والى بلاد السودان والمغرب فى يد المسلمين (٢٨). واتسعت دائرة التجارة الإسلامية مع بلاد السودان الغربى وخلقت نمواً عمرانياً جديداً على طول الصحراء وتأسست مراكز لتجميع التجارة ، وظهرت فئات جديدة فى المدن القديمة يجمعها تنظيم مهنى(٢٩). يعززه فى كثير من الحالات وحدة الأصول القبلية ويجدد حيويته ابدا رباط العقيدة الاسلامية المتين . وقد أشرنا عاليه الى أهمية

العلاقات التجارية بين القيروان وبلاد السودان (٣٠). ولاينصب اهتمامنا بالتجارة أو الأحداث التاريخية الأخرى الا بقدر ما أثرت فى نشر الإسلام والثقافة الاسلامية والتى أثرت بالتالى على المناخ النفسى والمدى للمسلم فى غرب افريقيا .

كان لتاهرت وسجلماسة صلات تجارية مؤثرة ، على أن مدينة أودغست التى توسعت حتى صارت دولة مدنية ، يمكن دراستها باعتبارها نموذجاً للمدن التجارية الإسلامية من حيث تأثيرها الثقافى والدينى . فقد نشأت على طريق تجارى قديم ، ولم تكن اسلامية النشأة (٣١). وكانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل ان تدخل المغرب غانة . وقد أهلت بالسكان قبل المسلمين(٣٢). وتنتهى اليها القوافل الكبرى بين سجلماسة المغربية وبلاد غانة . ولم يكن فى مدينة أودغست سلع هامة تنتجها بقدر ما اهتمت بتجارة العبور (ترانسيت) ولهذا السبب كان صاحبها يحافظ على توازن علاقاته مع الشمال والجنوب ويحمى المصالح التجارية مراعيا استتباب الامن والسلم (٣٣). ويذكر اليعقوبى أن البلاد الواقعة بين أهل أودغست الملثمون صنهاجة (٣٤). وأضاف أن ملك أودغست وثنى لا دين له ، ويغزو بلاد السودان ، وممالكهم كثيرة . وفى عهد المرابطين دخلت أودغست فى دائرة نفوذهم الممتد من بلاد الاسلام فى الشمال وبلاد السودان فى الجنوب(٣٥). وقام الملثمون بدور هام فى حراسة قوافل التجارة واستتباب الأمن على طول الطريق . كما دعوا للاسلام بين سكان الصحراء وبلاد السودان ، وجاهدوا من بها من أمم ، وحملوهم على الإسلام فدان به كثير منهم ، واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم ، وقد كان للتجارة شأن كبير فى نشر الإسلام قبل استيلاء المرابطين الملثمين على أودغست فقد كانت مدينة أسلامية من قبلهم ، وبها جامع ومساجد كثيرة آهلة فى جميعها المعلمون للقرآن ، وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ، ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات(٣٦)

وتفيد بعض الروايات أن بعض دعاة الشيعة جاءوا الى أودغست ، ولم يرد ما يؤكد انخراطهم فى سلك الدعوة للاسلام فى تلك الاصقاع النائية (٣٧). ولم يتضح بصورة قاطعة ارتباط الفئات الاجتماعية الحديدة من التجار المسلمين الذين استوطنوا بالمراكز التجارية المماثلة بالتيارات المذهبية ذات الطابع التحررى التى ظهرت فى المجتمع الإسلامى خلال القرنين الثالث والرابع(٣٨) ولايستبعد بحال أن تكون تلك الموجات قد وصلت هناك حيث كانت أفريقيا مهجراً للافكار الطليعية التى يضيق بها المشرق (٣٩). ويحتمل أن الرغبة فى المحافظة على روح الوئام بين مختلف فئات التجار ومذاهبهم طغت على تلك الصراعات كما أن الأسلام كان قد انتشر عن طريق التجارة قبل انتصار الدعوة الشيعية

الفاطمية فى المغرب(٤٠). ويذكر البكرى أن من بين أهل أودغست جاليات عربية ومهاجرين من مغاربة القيروان (٤١). ولما اتسعت المدينة صار الزناتيون أهم فئاتها المستوطنة وكان هنالك صراع مستمر بين الزناتيين الذين يؤيدون الخوارج فى المغرب وفئات التجار العرب السنيين على سيادة تجارة الصحراء ، كما حدثت منافسة حادة على تجارة الصحراء بين طائفة الأباضية فى أودغست والطوائف الأخرى فى القرن الرابع الهجرى واحتدم التنافس قبيل سقوط تاهرت عام ٢٩٦هـ على أن العرب كانوا الفئة الثانية فى أودغست بعد الزناتيين(٤٢).

نمت أودغست على مدى العصور بنمو العلاقات التجارية بين المغرب والسودان حتى صارت من الامصار فى القرن الرابع الهجرى ، والسفر اليها متصل من كل بلد (٤٣). ولما أستولت قبيلة زناغة ــ احدى بطون صنهاجة ــ على الجزء الاكبر الشمالى من مملكة غانا صارت أودغست عاصمتهم تحت حكم يروتان ابن ويستو بن نزار (٣٥٠ ــ ٣٦٠هـ) وأخضع عشرين ملكا سودانيا أدوا الجزية (٤٤). ولم يكن هذا أول عهد دولة غانا بالاسلام والمسلمين . ولكن ما ذكر يؤكد أن أودغست كانت عاصمة غانا من قبل ، ثم استولت عليها زناغة لبعض الوقت ثم استردتها غانة . ويذكر المرابطون أن ابن ياسين فتحها عنوة بسبب خضوع أهلها المسلمين لسطان الشرك ، وحمل المرابطون كل ما أصابوا فى أودغست وقتلوا كثيرين (٤٥).

تنقسم مدينة أودغست الى مدينتين أو حيين . الحى الإسلامى وهو أهم أجزاء المدينة ومركز النشاط الإقتصادى فيها به أثنا عشر مسجداً ، يجتمعون فى احدها ، ولها الائمة والمؤذنون والراتبون ، وفيها فقهاء وحملة علم ... وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد اليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس حكم الملك (٤٦). وقد كان طراز عمارة الحى الاسلامى من أودغست على النسق الإسلامى المتأثر بالمغرب(٤٧).. ويصف البكرى منازلها بانها متقنة المبانى حسنة (٤٨) بينما يذكر ابن خلدون أن أهل السودان لايعرفون البناء ، ومبانيهم من الطين لندرة الحجارة ، حيث تتكاثر تكون مظهراً خاصا لبناء المدن (٤٩). ويمكن القول إن الإسلام ظل محصوراً فى المدن التجارية قبل أن يصير دين الدول الأفريقية ، وربما كان أثره مايزال طفيفاً بين سكان الريف وعلى الزراع وعلى صيادى السمك فى مناطق المستنقعات فى هذه المرحلة (٥٠).

يتضح من التركيب الاجتماعى لمدينة أودغست أن المدن التجارية كانت مدنا عالمية تعايشت فيها جماعات مختلفة الاعراق والديانات ، وقد كفلت فيها حرية

العقيدة كما رأينا ، اختلط فيها الافريقى بالتاجر المسلم ، وكانت مآذنها الأثنا عشر ترفع نداء الصلاة فى مواقيتها الخمسة كل يوم ، والوثنى يسمع ، والوثنى يرى الجماعة المهيبة وصدق الدعاة الاوائل ولين عريكتهم .

أشرنا فى فقرة سابقة الى أن فتح كومبى عاصمة غانا على يد المرابطين عام ١٠٧٦ وأن السنونكيين الذين كانت تربطهم علاقات حميمة ومستمرة بالتجار المسلمين لم يجدوا غرابة فى الإسلام فاعتنقوه ــ أما الذين أصروا على ديانتهم القديمة فقد هربوا من المدينة وانضموا للجماعات القبلية المناوئة للاســلام ، وبنفس القدر كان غزو كومبى على يد سومانجورو الصوصى زعيم الحلف الوثنى من حيث الآثار التى نجمت عنه وأثرت على مستقبل انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا ، فقد تفرقت أعداد كبيرة من مسلمى المدينة فى أرجاء السودان الغربى ينشرون الإسلام اينما استقروا . وكان دور السنونكيين المزدوج كتجار ومبشرين قد مكن لهم نفوذاً فاق طاقتهم العددية أضعافا مضاعفة فى نشر الإسلام على طول نهر النيجر الاعلى (٥١). وفى كثير من الحالات أن لم يكن كلها كان زمام المبادرة لتطوير التجارة بين النطاقين الحيويين فى السودان الغربى ــ شماله وجنوبه ــ قد اخذه التجار السودانيون من قبائل السنونكيين وديولا الماندنجو الذين يمتازون بمهارة تجارية غريزية ، فقد تأسس بجهودهم أول الطرق التجارية كطريق جنى غاو وبين بندكتو وبلاد الاشانتى . وطريق نوب ــ كانو الذى يجتاز بلاد الاشانتى وطريق أويو وبلاد الساحل على طول نهر أوجون ، على أن هذه الطرق لم تحجم عنها قوافل تجار شمال أفريقيا فكانوا بالمثل يمارسون معاملاتهم التجارية فى المراكز النشطة الواقعة على تلك الطرق ويركزون على الذهب بصفة خاصة (٥٢). وأصبح من النادر وجود مدينة من مصب نهر السنغال الى لاجوس لاتوجد بها مئذنة ، وامتد أثر التجار المسلمين حتى مناطق الغابات .

برز الإسلام كقوة حاكمة فى عهد مملكة التكرور ، ولكن الجهود المناوئة له أعادت وادى السنغال للوثنية ، على أن الانتقال الحاسم كان على عهد بناة الامبراطوريات الإسلامية من قبائل الماندنجو والصونغاى فى القرن الحادى عشر حيث أسلم الملك الماندنجى برامندينا Baramandena بعد أن أقتنع بجدوى شعائر الإسلام التعبدية فى تسخير قوى الطبيعة . فقد ألم بمملكته محل شديد ولم تستدر القرابين التى قدمت للآلهة الوثنية عيون السحاب ، فكفر بآلهته القديمة وجرب رب المسلمين فهطلت السماء وابلا مدرارا ، فاخضر الحرث ودر الضرع ، ثم دخلت جماعات من قبائل زا كاسوى Za Kasoi فى حظيرة

الإسلام سلما واقتناعا بين بداية ونهاية القرن الحادى عشر ثم انتهى الامر باسلام البيت الحاكم الصونغى (٥٣).

ولما تطورت مملكتا مالى وصونغى للمستوى الامبراطورى أصبح الاسلام دين الدولة الرسمى فيهما واكتست مدن السودان الغربى بزيها الاسلامى(٥٤). وأصبح العلماء المسلمون طبقة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطانى وفى الحياة الثقافية والاجتماعية وازدهرت الحركة العلمية فى المدن السودانية فاصبحت تمبكتو وجنى مدنا جامعية مشهورة فى أرجاء المشرق والمغرب الإسلامى ومن ذلك يرى أن الاسلام قد تمكنت جذوره وتأمنت وغدا دينا امبراطوريا وكان تخطيه أسوار المدن السلطانية لينشر بين الجماهير فى البادية والريف أمرا يحتاج الى الوقت فقط .

على أن الضربة القاصمة التى خلخلت هذا الصرح الشامخ جاءت من الغزاة المراكشيين الذين خربوا امبراطورية صونغى وتفرقت سلطة الاسلام السياسية وحاكمية الشريعة المسلمة ، وتدهورت التجارة الاسلامية وانحطت الحياة الثقافية فى كل من تمبكتو وجنى (٥٥). وقام على انقاض صونغى دويلات البامبرا الوثنية على أن نجم الإسلام تألق مرة أخرى ورفرفت ألوية الامبراطورية الإسلامية فى السودان الغربى فى القرن التاسع عشر .

أما انتشار الإسلام فى الاقاليم الوسطى فى السودان الغربى فى منطقة بحيرة تشاد فقد جاءت روافده من مصر وطرابلس والسودان وقد وصل الإسلام الى البلاط الملكى باعتناق السلطان ماى أمى Mai Ummi وحاشيته وصارت الشريعة الإسلامية دستور الدولة الرسمى ، على أن قبائل الكانورى الوثنية أثارتها جهود السلطان دوناما الثانى للقضاء على الديانات المحلية قضاءاً نهائيا فكسرت شوكة قوى دولة كانم وضعفت التوجيهات الإسلامية فى سياسة الكانورى، ثم بدأت السيادة الاسلامية تستعيد أراضيها بحذر فى عهد السلطان على غاجى حتى تحقق لها النصر فى سلطنة ادريس عالومة واصبح الاسلام الدين الرسمى لكانم وشدد السلاطين على الالتزام بخلق الاسلام فى البلاط وفى الاداة الحكومية وطبقت الشريعة الإسلامية بدقة فى جميع ولايات الدولة وحافظ على هذا المسلك خلفاء ادريس عالومه ، على أن الامور قد اختلت بالتدريج حتى وصلت فى القرن التاسع عشر مستوى من الانحدار أثار الفقيه عثمان دان فوديو لحمل راية الجهاد ضد حكام الكانورى (٥٦).

وبالنسبة لديار الهوسا فقد دخل الإسلام بلاط السلطان فى عهد ساركى على

ياجى أمير كانوا فى القرن الرابع عشر ، على أن ساركى كان يستعين بالعلماء المسلمين فى بلاطه منذ وقت قبل اسلامه ، وبعد ذلك عمر المساجد وأقام الجماعات ولكن تكتل الوثنيين أفلح فى فرض ديانة الوثنية السلفية وجعلها ديانة الدولة الرسمية مرة أخرى فى عهد السلطان كانا جيجى Kana - jeje ومع هذا فان دعوة الإسلام ظلت وقادة بين الشعب ، ولكنه لم يستعد مكانته دينا رسميا للدولة حتى حكم السلطان محمد رمفا ، على أن انتشار الاسلام سار على نفس الوتيرة فى امارات الهوسا الاخرى . فقد اعتنق أمراء كاتسينا الاسلام فى مطلع القرن السادس عشر واعتنقه أمراء دويلات المدن الأخرى بعد ذلك(٥٧). وحتى بعد سقوط امبراطورية صونغى وحدوث الردة الوثنية بانتقال سلطة الحكم الى دولة البامبرا لم يمنع المسلمين الأتقياء من ممارسة عباداتهم فى جميع أرجاء امبراطورية صونغى المنحلة فى نطاق السافنا أو فى جوف الغابات الاستوائية فى الجنوب ، وقد شغل كثير منهم مناصب المستشارين للسلاطين الوثنيين الذين علقوا اهتمامات كبيرة على رقيهم وكتاباتهم التى تطرد الاوراح الشريرة وتبطل كيد الاعداء ، ولم يختلف المسلمون فى وضعهم الاجتماعى عن بقية الرعايا الآخرين ، وعلى العموم كان سقوط امبراطورية صونغى الاسلامية أعظم حدث وقع فى السودان الغربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على أن مدينتا كانو وكاتسينا ظلتا محتفظتين بشخصيتيهما الاسلامية ، وكاتسينا بصورة خاصة لشهرتها العلمية . كما أن دولة برنو هى الدولة الوحيدة التى أصرت على البقاء دولة اسلامية حتى فى أعصب أوقات الشدة التى تعرضت لها ولما لحق بنهج الإسلام فيها من بدع ونحل غير مقبولة شرعا جعلت حركة الجهاد والاحياء الدينى مسالة حتمية .

أنهارت مملكة سيجو آخر الدويلات الوثنية فى عهد آخر ملوكها دا ديارا (١٨٠٨ – ١٨٢٧) أمام قوات فولانيى ماسينا التى قادها المصلح الإسلامى أحمدو لوبو وكانت حركته واحدة من حركات الجهاد والاصلاح الدينى الذى انطلق من فوتا جالون عام ١٧٢٥ واستمر الى السودان الغربى والاوسط فى القرن التاسع عشر(٥٨).

وقبل التعرض لأثر الاسلام على ثقافات غرب افريقيا المحلية لابد من تناول الأسباب والدوافع التى جعلت شعوب السودان الغربى ترتد عن دياناتها السلفية التى قامت عليها حياتها الفكرية والسياسية عبر آلاف السنين ، ومن المسلم به أن الاقتناع العقلى مدخل أساسى لقبول الافكار الجديدة والعقائد . ولايتم تحول الإنسان بسهولة من دينه القديم الذى تتحد بمنظاره علاقات الانسان

مع سائر قوى الكون الأخرى ، ويمثل التراث الدينى فى المجتمعات الأفريقية البدائية كل حصيلة الفكر ، وبديهى أن وثنيى غرب أفريقيا لم يقبلوا الاسلام الا بعد أن تفحصوه وتهيئوا له نفسياً لوجود توافق بين آرائه وبين آراء دياناتهم السلفية ، وفيه بعض الجوانب الجديدة النافعة التى تحفزهم للاعتناق ولاتتعارض مع أساسيات ممارسات المجتمعات القديمة أوتلغيها(٥٩).

كان هدف الاسلام ومايزال أسلمة المجتمع وأسلمة السلطة السياسية ويحرك هديه الاساسى بناء عالم أسمى ، وينصب أهتمام الاسلام أولا على التغير الروحى التعبدى والذى تظهر عظمته الاجتماعية فى أداء شعائر العقيدة الجماعى الذى يخلق التماسك الاجتماعى والوحدة والاخاء ، كما أنه لايتعارض باى حال مع أساسيات الثقافة الايجابية . فعندما انتشر الاسلام فى السودان الغربى لم يحدث هزات عنيفة فى البنية الاجتماعية أو الاقتصادية فقد ظلت معظم تقاليد الحياة الأسرية على صورتها العرفية لعدم تناقضها مع بساطة الاسلام . ومع أنه قضى على روح الانتماء والتعصب للقبلية أو التكتلات العرقية والانتساب الى الأم ، فان شان هذه العلاقات بدأ يضعف خاصة بين الافريقيين الذين كانوا يعيشون فى المدن التجارية جنبا الى جنب مع المسلمين ، حيث الوحدة الاجتماعية هى الاسرة ، وتباعدت وشائج الصلات القديمة وأصبح محور النشاط الاسرى الأب ، كما أن حياة الجماعة الاسلامية عوضت الاسرة الافريقية بانتماء جديد أنفع من الناحيتين الاقتصادية والثقافية . وفى مجال الحركة الاقتصادية أبقى الاسلام الحياة بنفس أساليبها القديمة فى الزراعة وسائر الحرف والصناعات على عكس ما حدث عندما دخلت المسيحية التى خططت لنقل الإنسان الافريقى الى مجال الحياة الاوربية والتكنولوجيا والسوق العالمية وصراعات السياسة الدولية الحادة المتناقضة (٦٠).

ومن المسائل التى سهلت على الافريقيين اعتناق الاسلام إن اطر البناء اللاهوتى لديانات غرب افريقيا لاتختلف عن الافكار السائدة فى الفكر الدينى القديم عموماً وفيها ممارسات موجودة فى الإسلام . فالديانات الافريقية تؤمن بفكرة الخالق الواحد المهيمن وهو رب السماء ، وترفض الشر وتحث على الخير وتؤمن بالغيب وان استخدمت السحر وسيطا لاستجلاء خوافيه ، على أن الإسلام حرم السحر بالطبع(٦١). ومع ذلك فقد ظهرت شعائر الاسلام لمعتنقى الديانات الوثنية مناسك تعبدية يمكن أن يفسرها الرجل العادى غير المتعلم — فالصلاه والصوم والمساجد الفخمة الضخمة كانت رغم غرابتها سمة مميزة للدين الجديد كما أن شروط الذبائح وصلاة الخائف كلما ألم به خطب وصلاة الجنازة واستخدام

الآيات القرآنية فى التعاويذ والرقى والتلاوة التعبدية ، بجدها الوثنى بدائل رائعة ومجدية حلت محل مخاطبة العالم العلوى التى تجعل الديانات القديمة وسيطها السحرة وأغنت عن عبادة أرواح الاسلاف وأبدلت الأدوية البلدية السحرية بالرقى القرآنية والطب العربى الإسلامى ، كل هذه المسائل ركائز ايمانية لازمة فى الديانات الوثنية . وطالما أن الإسلام ما رمى الى تحطيمها ، بل هذبها وصقلها من وجهة نظرهم ، فلم يكن ثمة مانع فى اعتناقه (٦٢).

كان الدعاة المسلمون والحكام الاوائل نافذى البصائر ، فلم يحدث أن اصطدم حاكم أو محكوم مصادمة مفتوحة مع عقيدة من العقائد المحلية الا نادرا جداً وقد ترتبت عليه عواقب ضارة أخرت المد الإسلامى بعض الوقت وكان من بين العوامل التى خلقت الالفة مع الدعاة المسلمين تجارا وعلماء ان ميولهم الثقافية الأساسية لم تكن تختلف كثيراً عن ميول أفريقيى السودان الغربى ، على عكس المبشر المسيحى مثلا ، وقد توغل الدعاة بين القبائل وعاشوا فيها وتزاوجوا منها وتشربوا كثيراً من عناصر ثقافتها ، وكان الدعاة فى العادة يتقنون الألسن المحلية ويتحدثونها بطلاقة لاحتكاكهم الوثيق بالناس فى التجارة وتبادل المنافع الأخرى (٦٣). كما أن الفوارق اللونية لم يكن لها أثر وممنوعة شرعاً حيث يتساوى جميع البشر المسلمين على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأوطانهم ، بمعنى أن الإسلام خلق لوطن عالمى لاحده مكان بعكس المسيحية التى حملها المبشر الاوربى الابيض ، ولايزال الافريقيون ينظرون اليها مسلمين بانها ديانة الرجل الابيض وقيمه الاوربية الخالصة وليس فيها مجال لاستيعاب كرامة الافريقى وهيبته (٦٤). ومن الظواهر الملفتة للنظر أن الدعاة والحكام المسلمين سرعان ما اندمجوا فى الهياكل الاجتماعية القائمة وان أصبحوا جزءاً بارزاً وممزاً فيها بحيث لم يؤثروا على التركيب الطبقى القائم (٦٥). ولم يسلب الاسلام السلطة من الافريقيين انما اشترط أن يكون حاكم الدولة الاسلامية مسلما وفى الحقيقة جعل الاسلام المواطن الافريقى سيد نفسه ووطنه ، ولكن أينما وطدت المسيحية أقدامها ... جعلت الأجانب يستحوذون على البلاد (٦٦) . ومن مزايا الاسلام النابعة من بساطته أن الجانب التعبدى فيه عادة يومية سهلة يمكن أن يقوم بها الافريقى بين أعماله اليومية ولاتنفصل شعائر الجماعة واوقاتها عن التغلغل فى مجتمع التجار المسلمين والاستيطان المدنى أو القروى ، ولايحتاج أداؤها الى طائفة من المتخصصين الاجانب(٦٧).

هنالك عوامل أخرى منفعية ساعدت على انتشار الاسلام فى السودان الغربى وهى عوامل ايجابية بنفس القدر . فقد كان المسلمون يقبضون على العصب

الرئيسى لاقتصاد بلاد جنوب الصحراء وهو التجارة وسيادة طرق القوافل لنمو قدراتهم العسكرية التى كفلت الأمن والحماية للغادين والرائحين . والذى لاشك فيه أن المسلمين الدعاة الاوائل قد افاضوا فى الحديث عن أمجاد الحضارة الاسلامية فى بلاد المشرق والمغرب الاسلامى — من منطلق العزة القومية وعللوها بانها من أمجاد الله ونعمه على المتقين ، وكما قدمنا كانت أزياء المسلمين وعماراتهم ورفاهة حياتهم ووسائلها المتقدمة يومئذ ، قد زادت من رونق الإسلام فى عيون الافريقيين (٦٨). ومن أول عناصر الجذب والانبهار ارتباط الدعوة الاسلامية بنص مقروء ولغة مكتوبة (٦٩). لأن الافريقيين الغربيين كانوا يؤمنون بان الحرف المكتوب يحمل مضامين روحية خفية ذات قوى خارقة ، وقد أشيع هذا الاعتقاد أسرار القرآن ، ولهذا السبب راجت سوق الرقى والتمائم القرآنية حتى بين الجماعات التى أحجمت عن أعتناق الاسلام (٧٠).

كان لاعتناق الاسلام مذاق خاص عند الزعماء الافريقيين والحكام ، فكان يضمن لهم تاييد العلماء والحاليات الاسلامية القوية المهيمنة على شئون التجارة والتعليم كما تساس به علاقاتهم مع دول الشمال الافريقى ، لذلك كانت عرى العلاقة بين العقيدة الاسلامية والسياسة متينة لا أنفصام بينهما وبنفس القدر كانت العلاقة بين الحكام الافريقيين المسلمين والدعاة ورجال الدين . لقد كانت علاقة عضوية حتى بين العلماء المسلمين والسلاطين الوثنيين وكان ذلك التداخل قائماً على جبر المنفعة المتبادلة بينهما ، طالما أن السلاطين لم يمنعوا نشر الاسلام السلمى بين الوثنيين ، ويتحكم فى العلاقة بين الداعية والسلطان الاحتياجات الوقتية والظروف المحيطة باهداف ومرامى كل من الجانبين(٧١).

ولم يكن القهر أو العنف يجدى فى نشر العقائد ولم يكن وارداً فى حالات التبشير الفردى الذى لاتوازره سلطة حاكمة ، لذلك لم ينتشر الاسلام أول الأمر بالتبشير المنظم ، ولكن بالتلقى العفوى الذى يتم بمخالطة المهاجرين عبر التبادل التجارى كما قدمنا ، وعملية البيع والاتجار معايشة مؤثرة تتبادل فيها الأفكار كما أن اقبال المواطنين الذى لاينقطع جريا وراء المنافع الاقتصادية يزيد الالفة والتعود ومعايشة الأفكار الاجنبية الحديدة وتخلق جواً مواتيا للتاثير والتاثر الثقافى. كان اعتناق الاسلام قيمة حياتية واجتماعية فى الافق الافريقى المتبدل أبداً ، فالافريقى الوثنى يامن من غائله السبى والاسترقاق فى ساحة حروب الجهاد الدينى التى اندلعت فى غرب أفريقيا بين دويلاتها الاسلامية المتصارعة اذا اسلم ، فلا تمس حقوقه المادية بأذى ، وإلى جانب عناصر الهدى الأخرى كان هـذا

الحق القانونى حافزاً قيم العطاء (٧٢). ومن الوقائع التى أعطت الاسلام مزايا لم تتوفر لعقيدة جديدة غيره السهولة المتزايدة فى الصلات بين الافريقى والمسلم نتيجة التحسن المستمر فى الثقة ووسائل الاتصال المباشر بالمساجد وخلاوى القرآن. ولما شعر الافريقيون بتدفق قوى الاستعمار الاوربى المسيحى على بلادهم اقبلوا على الاسلام باعتباره دينا مناوئا للبيض (٧٣).

يردد المبشرون والمستشرقون ومن أنساق وراءهم من المؤرخين الاخرين أن الاسلام انتشر فى النطاق السودانى جنوب الصحراء ، ولكنه وقف قبالة الحافة الشمالية للغابة الاستوائية ولم يفلح فى النفاذ وراء خط العرض العاشر شمالا حتى أصبح ذلك الخط يعرف بخط المسلمين (٧٤). وقد كان الحاجز أمام المد الاسلامى الغابات الكثيفة .على أن تبرير هذه الحقيقة القائم على التعليل الجغرافى ليس قاطعاً . فاذا كان الوعاء الذى حمل عليه الاسلام هو التجارة ، فانها لاتعتمد بالضرورة على القوافل الضخمة التى تتعثر فى الغابات ، فنشر الإسلام كعقيدة لايشترط تحقيق أى نوع من أنواع الهيمنة السياسية بتدبير انقلابات مفاجئة ، ويتضح ذلك من طريقة المعاملات التجارية بين قبائل الهوسا المسلمين وبين الاشانتى فى الاقاليم التى صارت تعرف حاليا بساحل الذهب ، وكان الطريق التجارى يمتد الى كوماسى على مسافة ١٨٠٠ ميل وعليه عدد من المراكز التجارية والاستراحات ويتجه الطريق غربا ثم جنوبا تجنبا للقبائل المعادية فى داهومى واليوربا فى غرب نيجيريا ويحمل تجارة المسلمين عبر بلاد غير مسلمة (٧٥). كما لم يعق تجول الاشانتى المسلمين والهوسا أية عقبات وهم ينساحون فى المناطق الاستوائية . كان التجار الهوسا ينزلون فى بيوت ضيافة الاجانب ، والتى صارت فيما بعد جزءاً من مدينة الاشانتى ، ومع وجود المسلمين فى مناطق الغابات ووجود بعض المنشآت الاسلامية فيها فان أثرها لم يكن كبيراً لأن السكان آثروا التمسك بعقائدهم ، ولم تكن تجمعات المسلمين كبيرة أو رامية لتاسيس سلطة سياسية هناك ، وحتى عندما فتح الفولانى بلاد الهوسا فانهم لم يتمكنوا من اخضاع اليوربا فى الغابة الاستوائية أو التغلب على البورنو(٧٦). لأن اعتناق الإسلام لايقوم على الاكراه أصلا . وحتى فى النطاق السودانى الغربى حيث العوامل الجغرافية مواتية فى الاقاليم المدارية توجد جماعات تعيش فى مناطق عزلة مثل مرتفعات وجبال هومبورى وهضبة باوتشى شمال شرق نيجيريا ، ومناطق المستنقعات على حواف بحيرة تشاد ومنطقة البحيرات العظمى فى حوض النيجر الاوسط ، وطبيعة هذه الجماعات الانطواء

ومقاومة أى أفكار جديدة أو عقائد مستحدثة تفد مع الاجانب . على أن التاثير على هذه الجماعات ليس مستحيلا لكنه يحتاج الى قدر من الاصرار والمثابرة والأناة والأمكانيات المادية . وقد نجح الدعاة المسلمون السودانيون فى نشر الإسلام فى مناطق عزلة مشابهة – منطقة جبال النوبة – على نفس خط العرض وكانت تلك المناطق من وجهة النظر المسيحية صدر الدرع الواقى من المد الإسلامى نحو جنوب السودان الاستوائى ، وقد فشلت فيها جهود الارساليات الاوربية التى حمتها سلطات الاستعمار البريطانى وجعلتها منطقة محظورة على المسلمين ، ولم تفتح أمامهم الا بعد أن اقتنعت الحكومة البريطانية بعدم فعالية الارساليات وسلبياتها التى أثارت الحمية الإسلامية واصرار المسلمين على رفع الحظر عن ذلك الاقليم . وما أن سمح للدعاة الاسلاميين بالعمل هناك حتى حقق الاسلام نصراً كاسحاً فبلغ تعداد تلاميذ المدارس الحكومية المسلمين بمنطقة الجبال الغربية أكثر من ٦٠٪ من مجموع التلاميذ ، وحدث أعراض واضح عن مدارس الارساليات فقد تقلص عدد تلاميذها الى مائتى تلميذ فيهم مائة وسبعة من المسلمين الذين لم يجدوا مدارس اسلامية فى منطقتهم ، وستون تلميذاً مسيحياً وثلاثة وثلاثون وثنياً وذلك فى عام ١٩٥٢(٧٧). كما أن انتشار الإسلام فى اقاليم الغابة الاستوائية (٧٨). السودانية يبطل حجة عجز الإسلام عن اختراق الغابة التى أخترقها فى السودان الغربى فعلا ، وكان أثره ومنشآته فيها بقدر الطاقة البشرية التى حملته الى هناك . ولم ينتشر الاسلام فى الاحراش بالاساليب أو السرعة التى تم بها فى اقليم السافنا ، فقد كان الدعاة فى الغابة مرنين لايعرفون التعصب ويؤمنون بحرية العقائد وتعايش الأديان دون صعوبة أو مشقة ، ويترفع الدعاة عن الأضطهاد الدينى ، ويرى أن اسباب أنصراف سكان أقاليم الدوجون والاشانتى وداهومى واليوربا عن اعتناق الإسلام باعداد كبيرة هو تمسكهم بديانات ذات بناء لاهوتى محكم ورؤية فلسفية متماسكة محددة تجمعها هياكل طقوسية ومأثورات اسطورية تفى بحاجات التعبد البدائى فى تلك البيئة البكرة ، كما أن التنظيم السياسى لتلك القبائل كان قويا وبنفس المستوى كانت قبائل التف (Tev) النيجرية (٧٩) هذه المنطقة انتشرت فيها المسيحية فيما بعد ، لأنها دخلت عن طريق الساحل وقد شيدت هياكلها على العطاء المادى الحيوى الذى يضمن استقامة البقاء الانسانى واستمراره فى تلك البيئة الصعبة القاسية التى لايجدى فيها الاقناع الا بما يدفع عن الإنسان غائله الفناء والانقراض ، فقد غلفت المسيحية بعطاء تقنية العصر الحديث، وهى ليست نتاج المسيحية انما نتاج العلم ، وكما أوضحنا من قبل ، كان الإسلام

ومايزال منهجاً قويا للدعوة ، ولكنه لما وصل الى تلك البلاد لم يكن مدعوماً بقوة السلطة السياسية ، ولم ياخذ الدعاة التجار والفقهاء بالاساليب العصرية المنافسة لهم لاجتذاب الوثنيين وتأليف قلوبهم . فالحكمة والموعظة الحسنة غدت خدمة البيئة وتوفير احتياجات الإنسان ، وليس هذا ميسوراً للجهد الفردى . فعندما كانت حضارة الإسلام المادية قمة الحضارة التطبقية وتقنية العصور الوسطى جذبت اليه كل الشعوب التى اعتنقت الإسلام . ولما تغير الزمان وانتقل مدار الدعوة الى حيز جغرافى قاهر ، كانت الظروف قد اختلفت وظهر المنافس العقائدى الاوربى الذى يستمد طاقاته من حركة التوسع الاستعمارى فجاء المبشر يحمل الانجيل والمبضع والعقاقير والميكنة ، وانحسرت من الجانب الآخر طاقة المد الاسلامى من منابعها تحت وطأة الاستعمار ، ولم تعد هموم الدعوة هموم الأنظمة الاسلامية الحاكمة . ومع هذا عجزت الكنيسة أن تخترق مجال النفوذ الاسلامى فى بلاد السودان الغربى برغم تكريس اهتمام الاوربيين بتلك البلاد الزاخرة بخامات الصناعة ، وهى بنفس المنطلق أكبر الاسواق المستهلكة للسلع الاوربية التى يحرم الاسلام كثيراً منها أو ينفر منه الذوق الاسلامى ، وكان لابد أن تسعى الدول الصناعية المسيحية لزحزحة أو كسر هذا الطوق الدينى حتى تتحقق ثمار الثورة الصناعية المسيحية . ولم تنجح ، لأن الأسلام كان قد كثف وجوده وعمق جذوره فى البلاد التى انتشر فيها وأصبح دعامة من دعامات القومية الافريقية ولم يكن نوعاً من أنواع الوجاهة الاجتماعية أو الهيبة السلطوية ولكنه اقتناع ثقافى مطمئن(٨٠). وبقدرما اسهم الاسلام فى تطوير نظم الحكم ــ أثر على الثقافة المحلية فاضفى عليها صفوة ملامحه : لغته وكتابه ومناخه الفكرى وكان أول مدخلاته فى غرب أفريقيا التعليم والكتابة : لأن طلب العلم فرض على كل مسلم .

ارتبط انتشار الاسلام فى بلاد السودان الغربى بالتعليم الدينى ، ولهـــذا غدا الأثر الروحى هو العميق والغالب فى الجماعات الاسلامية هنالك واصبح قوة الدفع الملهمة التى قوت عزائم الافريقيين لمقاومة الهجمة الاستعمارية الاوربية التى اتخذت من نشر المسيحية ستاراً لترسيخ دعائم الثورة الصناعية وكسر شوكة العزة الوطنية والقضاء على السلطة الافريقية الحرة ، ولقد أشرنا فى أكثر من مكان الى أن دخول الإسلام غير الروح والوجدان الثقافى الافريقى وحافظ فى نفس الوقت على هيكل البناء الثقافى بهويته الافريقية القاطعة بمعنى أن النقلة الحضارية كانت بقدر التفاوت بين مدخلات الإسلام والثقافة المحلية .

يختلف نهج التعليم الإسلامى كما وكيفا عن طريقة التعلم التقليدى فى بلاد السودان الغربى الذى كان تعليما بيئيا محليا أمياً يرمى لتعريف الطرق العملية للتواؤم مع البيئة ويهتم فى المقام الأول بتعميق جذور العادات والتقاليد والعرف السائدة والواجبات الاجتماعية واكتساب المهارات الحرفية والابداعية ويعنى عناية خاصة بقواعد السلوك التى تنظم علاقات الافراد الخارجية مع المجتمعات المجاورة (٨١). ويقع عبء تعليم الصبية على الأب الذى يكون القدوة ويساعد الأبن فى القيام باعباء الحياة حتى يكتسب المهارة الضرورية ، وبالمثل يقع تعليم البنت على والدتها . وقد كان نظام التلمذة معروفاً ــ وتعتبر الحكاية الشعبية ذات المضمون الاخلاقى من أهم الوسائل التعليمية هناك (٨٢). أما الدراسات التى قام عليها التعليم الاسلامى فقد غطت جميع جوانب المعرفة العالمية المتاحة يومئذ والتى تدور فى فلك العقيدة وتكملها وتنشر عمارة الارض . يتكون النهج الاسلامى بجانب علوم الدين من علوم اللغة العربية والسياسة والقانون والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والتطبيقية . ومن المهارات الاساسية التى أعطاها العلم الاسلامى لاهل غرب افريقيا الكتابة حيث كانت ثقافاتها المحلية أمية حتى وطأت أقدام التجار والدعاة والعلماء الحوالين جوف الغرب الافريقى . وفى الحقيقة انحصرت المهارات والمعرفة الأسلامية المتخصصة فى الصفوة الافريقية ولكن مستوى الانجاز الاكاديمى الذى حققته تلك الأقلية بلغ حـــدا مرموقا من التجديد والتمكن وخاصة حصيلة المدن الجامعية مثل جنى وتمبكتو واساتذتها السودانيين الذين وصلت شهرتهم بلاد المغرب والمشرق الإسلامى مثل أحمد بابا التمبكتى والسعدى ومحمود كاتى ، وغيرهم كثر .

تناولنا فى هذا العرض الاولى بعض الافكار العامة لانتشار الإسلام فى بلاد السودان الغربى وأثره على الثقافة المحلية ، وفى أعتقادنا أن الاسلام أثر وموثر ثقافى بنفس القدر ، أثر ثقافى جاء هاديا مع تحركات المسلمين المتنوعة ، وموثر ثقافى لأنه عدل سمات الثقافات المحلية ، على أن مدخله لذلك كان منهج التعليم التقليدى والمدنى وتحتاج معالجته الى تناول تفصيلى ، نأمل أن نواصلها بمشيئة الله .

ثبت المراجـــع

A.J. Arkell: A History of the Sudan from the Earliest times to 1821.7 (London, 1964) P. 36ff. (١)

وعلى الحاتم : ايثيوبيا والايثيوبيون بين المصادر الاغريقية والرومانية والأدلة الأثرية حتى نهاية عصر الامبراطور دقلديانوس . رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٧٦م . ص ٢٧ – ٥٠.

F.M. Snowden, Jr.: Blacks in Antiquity (Harvard University Press, 1971) P. 105 (٢)

J.Desanges: Catalogue of African Tribes West of the Nile P. 37. (٣)

(٤) دنيس بولم : الحضارات الافريقية . ترجمة على شاهين (بيروت) ص٧٧.

Herodotus : The Histories, Tr. by A.D Godley (L.C.L. London, 1907) 4. 197. (٥)

(٦) دنيس بولم : المرجـــع السابق ص ٣٥

Hammond & Scullard : The Oxford Classical Dictionary (London 1970) P. 487. (٧)

Hammond & Scullard; Ibid, P. 22. (٨)

F.M. Snowden: op. ci*t*. p. 118 (٩)

Pliny: Natural History vol. VI. Tr. by G. Botier (Delthen).

Classies) Bk.6, 30 and Vol. 11 Bk. 2. 80-189. (١٠)

R. Wallet: Africa to 1875, Vol.1 (London, 1974) P.18, and (١١)

على الحاتم :تاريخ الفن النوبى السودانى خلال العصرين الرومانى والمسيحى ، رسالة دكتوراة غير منشورة . معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨١م . ص ٤٥ – ٧٦

R. Wallet, op, cit. p43. (١٢)

G.T. Stride, & C. Ifeka: Peoples and Impires of West Africa (١٣)

(Nelson 1978) P. 133 & R, Wallet: Ibid p. 17 and

عون الشريف قاسم وعثمان سيد احمد واحمد محمد على الحاكم وعلى الحاتم : الاسلام فى السودان :دراسة فى تكوين الشخصية السودانية (المجلس الأعلى للشئون الدينيةوالاوقاف. الخرطوم محرم ١٤٠٥هـ(ص.ب ٥و١١–١٣ و١٩و٣١ .

(١٤) أبوعبيد البكرى : البيان المغرب فى أخبار المغرب الجزائر(٨٨٥٧) جـ٤ص٥٩

(١٥) أبوعبيد البكرى : رياض النفوس ، جـ١ص١١٧ ، ص٣٨٨

(١٦) ابن عبدالحكم : فتوح مصر واخبارها (لندن ١٩٢٠) ص٢١٧

(١٧) نعيم قداح : افريقيا الغربية فى ظل الإسلام (دمشق ١٩٦٠) ص٢٧ ودنيس بولم : المرجـــع السابق ص ٤٩ .

(١٨) نعيم قداح : المرجع السابق ص٢٨ و R. Wallet, op, cit p. 43

(١٩) عبدالرحمن بدوى : مع حركة الاسلام فى أفريقيا (القاهرة) ص٤٨

(٢٠) عبدالرحمن بدوى : نفسه ص٥١ و G.T. Stride & C. Ifeka; op. cit p. 133.

(٢١) عبدالرحمن بن خلدون : العبر الجزء السادس طبعة بيروت ، ص٤١٣ .

وعبدالرحمن بدوى : المرجع السابق ص ٥٣ و G.T. Stride and C. Ifeka op. cit p.20–21.

(٢٢) عبدالرحمن زكى : تاريخ الدول الأفريقية الإسلامية السودانية بافريقيا الغربية (القاهرة ١٩٦١) ص ٢١٧ .

(٢٣) نعيم قداح : المرجع السابق ص ٢٧ ودنيس بولم : السابق ص . ٥٠

(٢٤) دنيس بولم : السابق ص ٤٦ – ٥٠ و R. Wallet; op. cit. op. 143

(٢٥) نعيم قداح : السابق ص ٨٧

(٢٦) G.T. Stride:op. cit. p. 21 – 22

(٢٧) ———————— ; Ibid. p 27

(٢٨) Christopher Fyfe: West African Trade A.D. 1000 – 1800 pp. 24–46 in A Thousand Years of West African History edit. A. Ajayi et. al. (Nelson 1979).

(٢٩) ابن الصغير : أخبار الائمة الرسمية طبعة باريس ١٩٠٨ ، ص ٢٧

(٣٠) أبوعبيد البكرى : المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٩ – ٦١

(٣١) أبوعبيد البكرى : المسالك والممالك ص ١٦٨

(٣٢) Raymond Maury: Notes Africanese, No.48 Oct. 1950

(٣٣) الحبيب الجنحانى : المغرب الإسلامى : الحياة الإقتصادية والاجتماعية (من ٣–٤هـ : ٩ – ١٠م) الدار التونسية للنشر ١٩٧٧) ص ٣٤.

(٣٤) اليعقوبى : كتاب البلدان . (ليدن ١٨٩١) ص ٣٦٠.

(٣٥) أبوعبيد البكرى : المرجع السابق والاستقصاء (الدار البيضاء ١٩٥٤) جـ٢ص٣

(٣٦) البكرى : نفسه ص١٥٨ .

(٣٧) البكرى : معجم البلدان . جـ١ ٢٧٨

(٣٨) الحبيب الجنحانى : السابق ص١٩٨ .

(٣٩) الحبيب الجنحانى : نفسه ص٤٥ .

(٤٠) عبدالرحمن بدوى : السابق ص ١٣ .

(٤١) القاضى النعمان بن محمد : رسالة افتتاح الدعوة : بيروت ١٩٧٠ – ص ١٤٩ وما بعدها .

(٤٢) البكرى : المغرب ، ص١٥٨

(٤٣) الحبيب الجنحانى : السابق ص ٢٠٠ .

(٤٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ١ ص١٧٨ .

(٤٥) أبوعبيد البكرى : المرجع السابق ص١٥٩

(٤٦) ،، ،، ،،

(٤٧) ،، ،، ص ١٦٨

(٤٨) الحبيب الجنحانى : نفسه ص ٢٠٥

(٤٩) البكرى : السابق

(٥٠) عبدالرحمن محمد بن خلدون : العبر جـ٦ (بيروت ١٩٥٩) ص٤١٦

(٥١) J.O. Hunwick: Islam in West Africa, A.D.1000–1800, in J.E.A Ajayi edit. A Thousand Years of West Africa History (I.V.P 1979)P. 150

(٥٢) G.T. Stride & C. Ifeka:op cit. 27.

(٥٣) البكرى : المغرب : ص١٥٨ وما بعدها

(٥٤) عبدالرحمن بدوى : مع حركة الإسلام فى فريقيا ٥ – ٧

G.T. Stride & C.Ifeka:op. cit. p. 134 – 135.

(٥٥) Roland Oliver & Brian M. Fagan:Africa in the Iron Age C.500 to A.D 1400 (Camb.Univ. Press 1975) pp 171–76,180–168

(٥٦) J.O. Hunwick:op. cit. p. 122, and Roland Oliver, and Brian M. Fagan: Ibid pp. 153–156.

(٥٧) G.T. Stride & Ifeka:op. cit p. 136 – 137. and Ibid p. 154–6, 178

(٥٨) Detrich Westernman: African and Christianity (London 1937)p. 130 and E.W. Bovill:Caravan of the Old Sahara (London 1933) P. 267 – 8.

(٥٩) G.T. Stride & C.Ifeka:op. cit. 173. and J.A Hunwick:op. cit: p. 114.

(٦٠) Lyden P. Harris is: Islam in West Africa (London 1954)pp.33–34

(٦١) G.T. Stride & C. Ifcka:op. cit p. 138 – 139.

(٦٢) S.F.Nadel; A Black Byzantium: The Kingdom of Nupe in Nigeria (London 1942)p. 142.

(٦٣) J.F. Ajaye: Review of C.P Grooves "Christianity in Africa" Vol. VII West Africa No. 2160. (Sept.1943)p.853

(٦٤) Robin Wallet : op. cit p.17.

(٦٥) E.W. Blyden:On Religion in Africa "The Sierra Leone Bulletin of Religion, Vol.2 (1960)p. 59& Nosipho Majeke:The Role of the Mission Armies in Conquest (Johansburg 1952) P. 6, 18.

(٦٦) R.W.Roome:Can Africa Be Won?(London 1929)p.75.

(٦٧) G.T.Stride & C. Ifeka:op. cit. p. 139

(٦٨) J.M.: Herskovits, T heHuman Factor in Changing Africa (London 1962) p.181.

(٦٩) G.T. Stride & C. Ifeka:op.cit p. 140.

(٧٠) Herskovits:op.cit.p.180 & G.T Stride & Ifeka. p.140

(٧١) John J. Casindine:Africa, World of New Men (N.York)p.33 – 5

(٧٢) Herskovits, op. cit. p.194.

(٧٤) J.M : Herskovits, The Significance of West Africa for Negro Research. Journal of Negro History, Vol. 21 (1936) passim.

Bovill. E.W.:The Golden Trade of the Moors (London 1958) P·229.

(٧٥) أحمد عبدالرحيم نصر : الإدارة البريطانية والتبشير الإسلامى والمسيحى . فى السودان دراسة أولية . (الشئون الدينية والاوقاف – طبع المطبعة الحكومية الخرطوم ١٣٩٨هـ – ١٩٧٩م، ص٣٣ وما بعدها .

(٧٦) ابراهيم عكاشة محمد على : التبشير الدينى فى جنوب السودان : ١٨٩٨ – ١٩٤٧ رسالة دكتوراة غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٨م.

(٧٧) Herskovits: op.cit. and Laura&Paul Bahnman-The Tev. of Centeral Nigeria (Ethnographic Survey of Africa). Western Africa, Prt. VIII, London 1953) p. 126 ff.

(٧٨) Herskovits: The Human Factor.op.cit. p. 196

(٧٩) : Ibid p.180 & pp. 241 – 46

(٨٠) : Ibid p. 221.

(٨١) A. Bals Fafuna: History of Education In Nigeria (London 1974)pp.20–47

(٨٢) S.F. Nadel : op.cit. p. 378. and Kenneth Little:The Mande of Sierra Leone (London 1942)p. 378.